

« ١ »

بحث حول المهديّ (عج)

تأليف: الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رض)

تحقيق وتعليق: الدكتور عبدالجبار شرارة

المقدمة

ليس المهدي تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوان لطموح اتّجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغة لإلهام فطريّ، (١) أدرك الناس من خلاله - على الرغم من تنوع عقاندهم ووسائلهم إلى الغيب - أن للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض، تحقّق فيه رسالات السماء بمغزاهها الكبير، وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مرّ التاريخ استقرارها وطمأنينتها، بعد عناء طويل. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتدّ إلى غيرهم أيضاً وانعكس حتى على أشدّ الإيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيات، كالمادية الجدلية التي فسّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، (٢) تُصَفّى فيه كل تلك التناقضات ويسود فيه الونام والسلام. وهكذا نجد أنّ التجربة النفسية لهذا الشعور التي مارسها الإنسانية على مرّ الزمن، من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الإنسان.

وحيثما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام، ويؤكد أنّ الأرض في نهاية المطاف ستمتلىء قسطاً وعدلاً، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً، (٣) يعطي لذلك الشعور قيمته

١ - إشارة إلى أن هذا ارتكاز في ضمير الإنسانية، واعتقاد سائد عند أغلب شعوب الأرض، إذ هناك شعور قويّ يخالغ وجدان الإنسان بظهور المنقذ عندما تتعقد الأمور، وتتعاظم المحنة، وتدأهم الخطوب، ويطبق الظلم، وهو ما تبشّر به الأديان، ويحكيه تاريخ الحضارات الإنسانية. راجع: سيرة الأنمة الاثني عشر / هاشم معروف الحسني ٢: ٥١٦ فيما نقله عن الكتب والمصادر، ومنها: نظرية الإمامية عند الشيعة / الدكتور أحمد محمود صبحي.

٢ - إشارة إلى معتقد الماركسيين وأمانبيهم باليوم الموعود، حيث ستسود الشيوعية - كما يعتقدون - آخر الأمر ويتوقف الصراع المرير، استناداً إلى نظريتهم الشهيرة في المادية التاريخية. راجع: فلسفتنا / الشهيد الصدر (ه): ص ٢٦ في عرض النظرية ومناقشتها.

٣ - إشارة إلى الحديث الشريف المتواتر: «لو لم يبق من الدهر إلا يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً». راجع: صحيح سنن المصطفى لأبي داود ٢: ٢٠٧، وراجع: التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف ٥: ٣٤٣.

« ٢ »

الموضوعية، ويحوّله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب، بل مصدر عطاء وقوة. فهو مصدر عطاء؛ لأنّ الإيمان بالمهديّ إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلّها، وهو مصدر قوة ودفع لا ينضب؛ (١) لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الإنسان، ويحافظ على الأمل المشتعل في صدره مهما ادلهمت الخطوب وتعلقت الظلم؛ لأنّ اليوم الموعود يثبت أنّ بإمكان العدل أن يواجه عالماً مليئاً بالظلم والجور، فيزعزع ما فيه من أركان الظلم، ويقوم ببناءه من جديد، (٢) وأنّ الظلم مهما تجرّب وامتدّ في أرجاء العالم وسيطر على مقدراته، فهو حالة غير طبيعية، ولا بدّ أن

ينهزم. (٣) وتلك الهزيمة الكبرى المحتومة للظلم وهو في قمة مجده، تضع الأمل كبيراً أمام كل فرد مظلوم، وكل أمة مظلومة، في القدرة على تغيير الميزان وإعادة البناء.

وإذا كانت فكرة المهديّ أقدم من الإسلام وأوسع منه، فإن معالمها التفصيلية التي حددها الإسلام جاءت أكثر إشباعاً لكل الطموحات التي انشأت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني، وأغنى عطاءً، وأقوى إثارةً لأحاسيس المظلومين والمعدّبين على مرّ التاريخ. وذلك لأنّ الإسلام حول الفكرة من غيب إلى واقع، ومن مستقبل إلى حاضر، ومن التطلع إلى منقذ تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً، وتطلّعه مع المتطلّعين إلى اليوم الموعود، واكتمال كل الظروف التي تسمح له بممارسة دوره العظيم. فلم يعد المهديّ فكرةً ننتظر ولادتها، ونبوءةً نتطلع إلى مصداقها، بل واقعاً قائماً ننتظر فاعليته، وإنساناً معيّنًا يعيش بيننا بلحمه ودمه، نراه ويرانا، ويعيش مع آملنا والأمانا، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا، ويشهد كل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعدّبين وبؤس البانسين وظلم الظالمين، ويكتوي بكل ذلك من قريب أو بعيد، وينتظر بلهفة اللحظة التي يتاح له فيها أن يمدّ يده إلى كل مظلوم، وكلّ محروم (٤)، وكلّ بانس، ويقطع دابر الظالمين.

وقد قدر لهذا القائد المنتظر أن لا يعلن عن نفسه، ولا يكشف للأخريين حياته على الرغم من أنه يعيش معهم انتظاراً للحظة الموعودة.

ومن الواضح أنّ الفكرة بهذه المعالم الإسلامية، تقرب الهوة الغيبية بين المظلومين، كل المظلومين والمنقذ المنتظر، وتجعل الجسر بينهم وبينه في شعورهم النفسي قصيراً مهما طال الانتظار.

ونحن حينما يراد منا أن نؤمن بفكرة المهديّ، بوصفها تعبيراً عن إنسان حيّ محدّد، يعيش فعلاً كما نعيش، ويترقّب كما نترقّب، يراد الإيحاء إلينا بأنّ فكرة الرفض المطلق لكل ظلم وجور التي يمثّلها المهديّ، تجسّدت فعلاً في القائد الراض المنتظر، الذي سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم، كما في الحديث، (٥) وأنّ الإيمان به إيمان بهذا الرفض الحيّ القائم فعلاً، ومواكبة له.

وقد ورد في الأحاديث الحثّ المتواصل على انتظار الفرج، ومطالبة المؤمنين بالمهديّ أن يكونوا بانتظاره. وفي ذلك تحقيق لتلك الرابطة الروحية، والصلة الوجدانية بينهم وبين القائد الراض، وكلّ ما يرمز إليه من قيم، وهي رابطة وصلة ليس بالإمكان إيجادها ما لم يكن المهديّ قد تجسّد فعلاً في إنسان حيّ معاصر. (٦)

وهكذا نلاحظ أنّ هذا التجسيد أعطى الفكرة زخماً جديداً، وجعل منها مصدر عطاء وقوة بدرجة أكبر، إضافة إلى ما يجده أي إنسان رافض من سلوة وعزاء وتخفيف لما يقاسيه من آلام الظلم والحرمان، حين يحس أنّ إمامه وقائده يشاركه هذه الآلام، ويتحسّس بها فعلاً بحكم كونه إنساناً معاصراً، يعيش معه وليس مجرد فكرة مستقبلية. ولكنّ التجسيد المذكور أدى في نفس الوقت إلى مواقف سلبية تجاه فكرة المهديّ نفسها (٧) لدى عدد من الناس، الذين صعب عليهم أن يتصوّروا ذلك ويفترضوه.

فهم يتساءلون!

إذا كان المهديّ يعبر عن إنسان حيّ، عاصر كل هذه الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون، وسيظلّ يعاصر امتداداتها إلى أن يظهر على الساحة، فكيف تأتي لهذا الإنسان أن يعيش هذا العمر الطويل، وينجو من قوانين الطبيعة التي تفرض على كل إنسان أن يمرّ بمرحلة الشيخوخة والهرم، في وقت سابق على ذلك جدّاً، وتؤدي به تلك المرحلة طبيعياً إلى الموت؟ أوليس ذلك مستحيلًا من الناحية الواقعية؟ (٨)

ويتساءلون أيضاً!

لماذا كل هذا الحرص من الله - سبحانه وتعالى - على هذا الإنسان بالذات؟ فتعطل من أجله القوانين الطبيعية، (٩) ويفعل ويفعل لإطالة عمره والاحتفاظ به لليوم الموعود؟ فهل عقلت البشرية عن إنتاج القادة الكفاء؟ ولماذا لا يترك اليوم الموعود لقائد يولد (١٠) مع فجر ذلك اليوم، وينمو كما ينمو الناس، ويمارس دوره بالتدرّج، حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً؟

ويستاءلون أيضاً!

إذا كان المهديّ اسماً لشخص محدد هو ابن الإمام الحادي عشر (١١) من أئمة أهل البيت (ع)، الذي ولد سنة (٢٥٦ هـ) (١٢) وتوفي أبوه سنة (٢٦٠ هـ)، فهذا يعني أنه كان طفلاً صغيراً عند موت أبيه، لا يتجاوز خمس سنوات، وهي سن لا تكفي للمرور بمرحلة إعداد فكري وديني كامل على يد أبيه، فكيف وبأي طريقة يكتمل إعداد هذا الشخص (١٣) لممارسة دوره الكبير، دينياً وفكرياً وعلمياً؟

ويتساءلون أيضاً!

إذا كان القائد جاهزاً، فلماذا كل هذا الانتظار الطويل مئات السنين؟

أوليس في ما شهده العالم من المحن والكوارث الاجتماعية ما يبرر بروزه (١٤) على الساحة وإقامة العدل على الأرض؟

ويتساءلون أيضاً!

كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهديّ، حتى لو افترضنا أن هذا ممكن؟ وهل يسوغ لإنسان أن يعتقد بصحة فرضية من هذا القبيل دون أن يقوم عليها دليل علمي أو شرعي قاطع (١٥)؟ وهل تكفي بضع روايات تنقل عن النبي (ص) لا نعلم مدى صحتها (١٦) للتسليم بالفرضية المذكورة؟

ويتساءلون أيضاً بالنسبة إلى ما أعد له هذا الفرد من دور في اليوم الموعود!

كيف يمكن أن يكون للفرد هذا الدور العظيم الحاسم في حياة العالم؟! مع أن الفرد مهما كان عظيماً لا يمكنه أن يصنع بنفسه التاريخ، ويدخل به مرحلة جديدة، وإنما تختمر بذور الحركة التاريخية وجذوتها في الظروف الموضوعية وتناقضاتها، وعظمة الفرد (١٧) هي التي ترشحه لكي يشكّل الواجهة لتلك الظروف الموضوعية، والتعبير العملي عما تتطلبه من حلول؟

ويتساءلون أيضاً!

ما هي الطريقة التي يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتم على يد ذلك الفرد من تحوّل هائل وانتصار حاسم للعدل ورسالة العدل على كل كيانات الظلم والجور والطغيان، على الرغم مما تملك من سلطان ونفوذ، وما يتواجد لديها من وسائل الدمار والتدمير، وما وصلت إليه من المستوى الهائل في الامكانيات العلمية والقدرة السياسية والاجتماعية والعسكرية؟ (١٨)

هذه أسئلة قد تتردّد في هذا المجال وتقال بشكل وآخر، وليست البواعث الحقيقية لهذه الأسئلة فكرية فحسب، بل هناك مصدر نفسي لها أيضاً، وهو الشعور بهيبة الواقع المسيطر عالمياً، وضالة أي فرصة لتغييره من الجذور، ويقدر ما يبعثه الواقع الذي يسود العالم على مرّ الزمن من هذا الشعور، تتعمّق الشكوك وتترادف التساؤلات. وهكذا تؤدي الهزيمة والضالة والشعور بالضعف لدى الإنسان إلى أن يحسّ نفسياً بإرهاق شديد، لمجرد تصور عملية التغيير الكبرى للعالم التي تفرغه من كل تناقضاته ومظالمه التاريخية، وتعطيه محتوياً جديداً قائماً على أساس الحق والعدل، وهذا الإرهاق يدعو إلى التشكك في هذه الصورة ومحاولة رفضها لسبب وآخر.

ونحن الآن نأخذ التساؤلات السابقة تباعاً؛ لنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة بالقدر الذي تتسع له هذه الوريقات.

المبحث الأول

كيف تأتى للمهدي هذا العمر الطويل؟

هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قرونًا كثيرة كما هو المفترض في هذا القائد المنتظر لتغيير العالم، الذي يبلغ عمره الشريف فعلاً أكثر من ألف ومئة وأربعين سنة، أي حوالي (١٤) مرة بقدر عمر الإنسان الاعتيادي الذي يمر بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة؟

كلمة الإمكان هنا تعني أحد ثلاثة معان: الإمكان العملي، والإمكان العلمي، والإمكان المنطقي أو الفلسفي.

وأقصد بالإمكان العملي: أن يكون الشيء ممكناً على نحو يتاح لي أو لك، أو لإنسان آخر فعلاً أن يحققه، فالسفر عبر المحيط، والوصول إلى قاع البحر، والصعود إلى القمر، أشياء أصبح لها إمكان عملي فعلاً. فهناك من يمارس هذه الأشياء فعلاً بشكل وآخر. (١٩)

وأقصد بالإمكان العلمي: أن هناك أشياء قد لا يكون بالإمكان عملياً لي أو لك، أن نمارسها فعلاً بوسائل المدينة المعاصرة، ولكن لا يوجد لدى العلم ولا تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبزر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصة، فصعود الإنسان إلى كوكب الزهرة لا يوجد في العلم ما يرفض وقوعه، بل إن اتجاهاته القائمة فعلاً تشير إلى إمكان ذلك، وإن لم يكن الصعود فعلاً ميسوراً لي أو لك؛ لأن الفارق بين الصعود إلى الزهرة والصعود إلى القمر ليس إلا فارق درجة، ولا يمثل الصعود إلى الزهرة إلا مرحلة تذييل الصعاب الإضافية التي تنشأ من كون المسافة أبعد، فالصعود إلى الزهرة ممكن علمياً وإن لم يكن ممكناً عملياً فعلاً. (٢٠) وعلى العكس من ذلك الصعود إلى قرص الشمس في كبد السماء فإنه غير ممكن علمياً، بمعنى أن العلم لا أمل له في وقوع ذلك، إذ لا يتصور علمياً وتجريبياً إمكانية صنع ذلك الدرع الواقي من الاحتراق بحرارة الشمس، التي تمثل أتوناً هائلاً مستعراً بأعلى درجة تخطر على بال إنسان.

وأقصد بالإمكان المنطقي أو الفلسفي: أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قبلية - أي سابقة على التجربة - ما يبزر رفض الشيء والحكم باستحالته.

فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوي وبدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطقي؛ لأن العقل يدرك - قبل أن يمارس أي تجربة - أن الثلاثة عدد فردي وليس زوجاً، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوي؛ لأن انقسامها بالتساوي يعني كونها زوجاً، فتكون فرداً وزوجاً في وقت واحد، وهذا تناقض، والتناقض مستحيل منطقياً. ولكن دخول الإنسان في النار دون أن يحترق، وصعوده للشمس دون أن تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية، إذ لا تناقض في افتراض أن الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، وإنما هو مخالف للتجربة التي أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوى الجسمان في الحرارة.

وهكذا نعرف أن الإمكان المنطقي أوسع دائرة من الإمكان العلمي، وهذا أوسع دائرة من الإمكان العملي.

ولا شك في أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً؛ لأن ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية، ولا يوجد في افتراض من هذا القبيل أي تناقض؛ لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع، ولا نقاش في ذلك.

كما لا شك أيضاً ولا نقاش في أن هذا العمر الطويل ليس ممكناً إمكاناً عملياً، على نحو الإمكانيات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر، ذلك لأن العلم بوسائله وأدواته الحاضرة فعلاً، والمتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة، لا يستطيع أن يمدد عمر الإنسان مئات السنين، ولهذا نجد أن أكثر الناس حرصاً على الحياة وقدرة على تسخير إمكانيات العلم، لا يتاح لهم من العمر إلا بقدر ما هو مألوف.

وأما الإمكان العلمي فلا يوجد علمياً اليوم ما يبزر رفض ذلك من الناحية النظرية. (٢١) وهذا بحث يتصل في الحقيقة بنوعية التفسير الفلسفي لظاهرة الشيخوخة والهزم لدى الإنسان، فهل تعبر هذه الظاهرة عن قانون طبيعي يفرض على أنسجة جسم الإنسان وخلاياه - بعد أن تبلغ قمة نموها - أن تتصلب بالتدريج وتصبح أقل كفاءة للاستمرار في العمل، إلى أن تتعطل في لحظة معينة، حتى لو عزلناها عن تأثير أي عامل خارجي؟ أو أن هذا التصلب وهذا التناقض في كفاءة الأنسجة والخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية، نتيجة صراع مع

عوامل خارجية كالميكروبات أو التسمم الذي يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف؟ أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أي عامل آخر؟

وهذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه، وهو جاذب في الإجابة عنه، ولا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمي.

فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التي تتجه إلى تفسير الشيخوخة والضعف الهرمي، بوصفه نتيجة صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية معينة، فهذا يعني أن بالإمكان نظرياً، إذا عزلت الأنسجة التي يتكوّن منها جسم الإنسان عن تلك المؤثرات المعينة، أن تمتدّ بها الحياة وتتجاوز ظاهرة الشيخوخة وتتغلب عليها نهائياً.

وإذا أخذنا بوجهة النظر الأخرى، التي تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحيّة نفسها، بمعنى أنها تحمل في أحشائها بذرة فنانها المحتوم، مروراً بمرحلة الهرم والشيخوخة وانتهاءً بالموت.

أقول:

إذا أخذنا بوجهة النظر هذه، فليس معنى هذا عدم افتراض أي مرونة في هذا القانون الطبيعي، بل هو - على افتراض وجوده - قانون مرن؛ لأننا نجد في حياتنا الاعتيادية؛ ولأن العلماء يشاهدون في مختبراتهم العلمية، أن الشيخوخة كظاهرة فيسيولوجية لا زمنية، قد تأتي مبكرة، وقد تتأخر ولا تظهر إلا في فترة متأخرة، حتى أن الرجل قد يكون طاعناً في السن ولكنه يملك أعضاء ليتنة، ولا تبدو عليه أعراض الشيخوخة كما نصّ على ذلك الأطباء (٢٢) بل إن العلماء استطاعوا عملياً أن يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعي المفترض، فأطالوا عمر بعض الحيوانات منات المرّات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية؛ وذلك بخلق ظروف وعوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة.

وبهذا يثبت علمياً أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف وعوامل معينة أمر ممكن علمياً، ولنن لم يتح للعلم أن يمارس فعلاً هذا التأجيل بالنسبة إلى كائن معقد معين كالإنسان، فليس ذلك إلا لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان وصعوبتها بالنسبة إلى أحياء أخرى. وهذا يعني أن العلم من الناحية النظرية وبقدر ما تشير إليه اتجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبداً ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان، سواء فسّرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية، أو نتاج قانون طبيعي للخليّة الحيّة نفسها يسير بها نحو الفناء.

ويتلخّص من ذلك: أن طول عمر الإنسان وبقائه قروناً متعددة أمر ممكن منطقيّاً وممكن علمياً، ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً، إلا أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

وعلى هذا الضوء نتناول عمر المهديّ عليه الصلاة والسلام وما أحيط به من استفهام أو استغراب، ونلاحظ:

إنه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقيّاً وعلمياً، وثبت أن العلم سائر في طريق تحويل الإمكان النظري إلى إمكان عملي تدريجاً، لا يبقى للاستغراب محتوى إلا استبعاد أن يسبق المهديّ العلم نفسه، فيتحوّل الإمكان النظري إلى إمكان عملي في شخصه، قبل أن يصل العلم في تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل، فهو نظير من يسبق العلم في اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

وإذا كانت المسألة هي أنه كيف سبق الإسلام - الذي صمّم عمر هذا القائد المنتظر - حركة العلم في مجال هذا التحويل؟

فالجواب: إنه ليس ذلك هو المجال الوحيد الذي سبق فيه الإسلام حركة العلم.

أولست الشريعة الإسلامية ككلّ قد سبقت حركة العلم والتطور الطبيعي للفكر الإنساني قروناً عديدة؟ (٢٣)

أولم تناد بشعارات طرحت خطأً للتطبيق لم ينضج الإنسان للتوصل إليها في حركته المستقلة إلا بعد مئات السنين؟

أولم تأت بتشريعات في غاية الحكمة، لم يستطع الإنسان أن يدرك أسرارها ووجه الحكمة فيها إلا قبل برهة وجيزة من الزمن؟

أولم تكشف رسالة السماء أسراراً من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان، ثم جاء العلم ليثبتها ويدعمها؟

فإذا كنا نؤمن بهذا كله، فلماذا نستكثر على مرسل هذه الرسالة - سبحانه وتعالى - أن يسبق العلم في تصميم عمر المهدي؟ (٢٤) وأنا هنا لم أتكلم إلا عن مظاهر السبق التي نستطيع أن نحسها نحن بصورة مباشرة، ويمكن أن نضيف إلى ذلك مظاهر السبق التي تحدثنا بها رسالة السماء نفسها.

ومثال ذلك أنها تخبرنا بأن النبي (ص) قد أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهذا الإسراء (٢٥) إذا أردنا أن نفهمه في إطار القوانين الطبيعية، فهو يعبر عن الاستفادة من القوانين الطبيعية بشكل لم يتح العلم أن يحققه (٢٦) إلا بعد مئات السنين، فنفس الخبرة الربانية أتاحت للرسول (ص) التحرك السريع قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك، أتاحت لآخر خلفائه المنصوصين العمر المديد، قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك.

نعم، هذا العمر المديد الذي منحه الله تعالى للمنقذ المنتظر يبدو غريباً في حدود المؤلف حتى اليوم في حياة الناس، وفي ما أنجز فعلاً من تجارب العلماء.

ولكن!

أوليس الدور التغييرى الحاسم الذي أعد له هذا المنقذ غريباً في حدود المؤلف في حياة الناس، وما مرت بهم من تطورات التاريخ؟

أوليس قد أنيط به تغيير العالم، وإعادة بنائه الحضاري من جديد على أساس الحق والعدل؟

فلماذا نستغرب إذا اتسم التحضير لهذا الدور الكبير ببعض الظواهر الغريبة والخارجة عن المؤلف، كطول عمر المنقذ المنتظر؟ فإن غرابة هذه الظواهر وخروجها عن المؤلف مهما كان شديداً، لا يفوق بحال غرابة نفس الدور العظيم الذي يجب على اليوم الموعود إنجازه. فإذا كنا نستسيغ ذلك الدور الفريد (٢٧) تاريخياً على الرغم من أنه لا يوجد دور مناظر له في تاريخ الإنسان، فلماذا لا نستسيغ ذلك العمر المديد الذي لا نجد عمراً مناظراً له في حياتنا المألوفة؟

ولا أدري!

هل هي صدفة أن يقوم شخصان فقط بتفريغ الحضارة الإنسانية من محتواها الفاسد وبنائها من جديد، فيكون لكل منهما عمر مديد يزيد على أعمارنا الاعتيادية أضعافاً مضاعفة؟

أحدهما مارس دور في ماضي البشرية وهو النبي نوح، الذي نصّ القرآن الكريم (٢٨) على أنه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقدر له من خلال الطوفان أن يبني العالم من جديد.

والآخر يمارس دوره في مستقبل البشرية وهو المهدي الذي مكث في قومه حتى الآن أكثر من ألف عام، وسيقدر له في اليوم الموعود أن يبني العالم من جديد.

فلماذا نقبل نوح الذي ناهز ألف عام على أقل تقدير ولا نقبل المهدي؟ (٢٩)

المبحث الثاني

المعجزة والعمر الطويل

وقد عرفنا حتى الآن أن العمر الطويل ممكن علمياً، ولكن لنفترض أنه غير ممكن علمياً، وأن قانون الشيخوخة والهرم قانون صارم لا يمكن للبشرية اليوم، ولا على خطها الطويل أن تتغلب عليه، وتغير من ظروفه وشروطه، فماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أن إطالة عمر الإنسان - كنوح أو كالمهدي - قروناً متعددة، هي على خلاف القوانين الطبيعية التي أثبتتها العلم بوسائل التجربة والاستقراء الحديثة، وبذلك تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً في حالة معينة للحفاظ على حياة الشخص الذي أنيط به الحفاظ على رسالة السماء، وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها، أو غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نص القرآن والسنة، (٣٠) فليس قانون الشيخوخة والهرم أشد صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويا، وقد عطل هذا القانون لحماية حياة إبراهيم (ع)، حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلك القانون. فقبل للنار حين ألقى فيها إبراهيم (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) الأنبياء : ٦٩، فخرج منها كما دخل سليمان لم يصبه أذى، إلى كثير من القوانين الطبيعية التي عطلت لحماية أشخاص من الأنبياء وحجج الله على الأرض، ففلق البحر لموسى، (٣١) وشبهه للرومان أنهم قبضوا على عيسى (٣٢) ولم يكونوا قد قبضوا عليه، وخرج النبي محمد (ص) من داره وهي محفوفة بحشود قريش التي ظلت ساعات تتربص به لتهاجم عليه، فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشي بينهم. (٣٣) كل هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطلت لحماية شخص، كانت الحكمة الربانية تقتضي الحفاظ على حياته، فليكن قانون الشيخوخة والهرم من تلك القوانين.

وقد يمكن أن نخرج من ذلك بمفهوم عام وهو أنه كلما توقف الحفاظ على حياة حجة الله في الأرض على تعطيل قانون طبيعي، وكانت إدامة حياة ذلك الشخص ضرورية لإنجاز مهمته التي أعد لها، تدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لإنجاز مهمته التي أعد لها، وعلى العكس إذا كان الشخص قد انتهت مهمته التي أعد لها ربانياً فإنه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقاً لما تقرره القوانين الطبيعية.

ونواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالي: كيف يمكن أن يتعطل القانون؟ (٣٤) وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية؟ وهل هذه إلا مناقضة للعلم الذي اكتشف ذلك القانون الطبيعي، وحدد هذه العلاقة الضرورية على أسس تجريبية واستقرائية؟!

والجواب: أن العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة في القانون الطبيعي، وتوضيح ذلك: إن القوانين الطبيعية يكتشفها العلم على أساس التجربة والملاحظة المنتظمة، فحين يطرّد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة أخرى يستدل بهذا الاطراد على قانون طبيعي، وهو أنه كلما وجدت الظاهرة الأولى وجدت الظاهرة الثانية عقيبها، غير أن العلم لا يفترض في هذا القانون الطبيعي علاقة ضرورية بين الظاهرتين نابعة من صميم هذه الظاهرة وذاتها، وصميم تلك وذاتها؛ لأن الضرورة حالة غيبية، لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائي والعلمي إثباتها، ولهذا فإن منطق العلم الحديث يؤكد أن القانون الطبيعي - كما يعرفه العلم - لا يتحدث عن علاقة ضرورية، بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين، (٣٥) فإذا جاءت المعجزة وفصلت إحدى الظاهرتين عن الأخرى في قانون طبيعي لم يكن ذلك فصماً لعلاقة ضرورية بين الظاهرتين.

والحقيقة أن المعجزة بمفهومها الديني، قد أصبحت في ضوء المنطق العلمي الحديث مفهومة بدرجة أكبر مما كانت عليه في ظل وجهة النظر الكلاسيكية إلى علاقات السببية.

فقد كانت وجهة النظر القديمة تفترض أن كل ظاهرتين اطرّد اقتران إحداهما بالأخرى فالعلاقة بينهما علاقة ضرورة، والضرورة تعني أن من المستحيل أن تنفصل إحدى الظاهرتين عن الأخرى، ولكن هذه العلاقة تحولت في منطق العلم الحديث إلى قانون الاقتران أو التابع المطرد (٣٦) بين الظاهرتين دون افتراض تلك الضرورة الغيبية.

وبهذا تصبح المعجزة حالة استثنائية لهذا الاطراد في الاقتران أو التابع دون أن تصطدم بضرورة أو تؤدي إلى استحالة.

وأما على ضوء الأسس المنطقية للاستقراء، (٣٧) فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة، في أن الاستقراء لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين، ولكننا نرى أنه يدل على وجود تفسير مشترك لا طراد التقارن أو التعاقب بين الظاهرتين باستمرار، وهذا التفسير المشترك كما يمكن صياغته على أساس افتراض

الضرورة الذاتية، كذلك يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظم الكون إلى ربط ظواهر معينة بظواهر أخرى باستمرار، وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً إلى الاستثناء فتحدث المعجزة.

المبحث الثالث

لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره [عج]؟

ونتناول الآن السؤال الثاني، وهو يقول:

لماذا كل هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل، وتنضجه إرهابات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المنتظر.

وبكلمة أخرى: ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرر لها؟

وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً، فنحن نؤمن بأن الأنمة الاتني عشر مجموعة فريدة (٣٨) لا يمكن التعويض عن أي واحد منهم، غير أن هؤلاء المتسانلين يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلبات المفهومة لليوم الموعود.

وعلى هذا الأساس نقطع النظر مؤقتاً عن الخصائص التي نؤمن بتوفرها في هؤلاء الأنمة المعصومين، (٣٩) ونطرح السؤال التالي:

إننا بالنسبة إلى عملية التغيير المرتقبة في اليوم الموعود، بقدر ما تكون مفهومة على ضوء سنن الحياة وتجاربها، هل يمكن أن نعتبر هذا العمر الطويل لقاندها المدخر عاملاً من عوامل إنجاحها، وتمكّنه من ممارستها وقيادتها بدرجة أكبر؟

ونجيب عن ذلك بالإيجاب، وذلك لعدة أسباب منها ما يلي:

إنّ عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها، مشحوناً بالشعور... بالتفوق والإحساس بضالة الكيانات الشامخة التي أعدّ للقضاء عليها، وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد.

فبقدر ما يعمر قلب القائد المغيّر من شعور بتفاهة الحضارة التي يصارعها، وإحساس واضح بأنها مجرد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان، يصبح أكثر قدرة من الناحية النفسية (٤٠) على مواجهتها والصمود في وجهها ومواصلة العمل ضدها حتى النصر. ومن الواضح أنّ الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسي يتناسب مع حجم التغيير نفسه، وما يراد القضاء عليه من حضارة وكيان، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشخ، تطلب زخماً أكبر من هذا الشعور النفسي المفعم.

ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم وبالجور، تغييراً شاملاً بكلّ قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة، فمن الطبيعي أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم الذين نشأوا في ظل تلك الحضارة التي يراد تقويضها واستبدال حضارة العدل والحق بها؛ لأنّ من ينشأ في ظل حضارة راسخة، تعمر الدنيا بسلطانها وقيمها وأفكارها، يعيش في نفسه الشعور بالهبة تجاهها؛ لأنّه ولد وهي قائمة، ونشأ صغيراً وهي جتارة، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أو جهها المختلفة.

وخلافاً لذلك، شخص يتوغل في التاريخ عاش الدنيا قبل أن ترى تلك الحضارة النور، ورأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحدة تلو الأخرى ثم تداعت وانهارت، (٤١) رأى ذلك بعينه ولم يقرأه في كتاب تاريخ..

ثم رأى الحضارة التي يقدر لها أن تكون الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود، رآها وهي بذور صغيرة لا تكاد تتبين..

ثم شاهدها وقد اتخذت مواقعها في أحشاء المجتمع البشري تترى الفرصة لكي تنمو وتظهر..

ثم عاصرها وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة، ويحالفها التوفيق تارة أخرى..

ثم واكبها وهي تزدهر وتتعلق وتسيطر بالتدريج على مقدرات عالم بكامله، فإن شخصاً من هذا القبيل عاش كل هذه المراحل بفضة وانتباه كاملين، ينظر إلى هذا العملاق - الذي يريد أن يصارعه - من زاوية ذلك الامتداد التاريخي الطويل الذي عاشه بحسنة، لا في بطون كتب التاريخ فحسب، ينظر إليه لا بوصفه قدراً محتوماً، ولا كما كان ينظر (جان جاك روسو) (٤٢) إلى الملكية في فرنسا، فقد جاء عنه أنه كان يربعه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملك، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكرياً وفلسفياً إلى تطوير الوضع السياسي القائم وقتئذ؛ لأن (روسو) هذا نشأ في ظل الملكية، وتنفس هواءها طيلة حياته، وأما هذا الشخص المتوغل في التاريخ، فله هيبة التاريخ، وقوة التاريخ، والشعور المفعم

بأن ما حوله من كيان وحضارة وليد يوم من أيام التاريخ، تهيات له الأسباب فوجد، وستتهياً الأسباب فيزول، فلا يبقى منه شيء كما لم يكن يوجد منه شيء بالأمس القريب أو البعيد، وأن الأعمار التاريخية للحضارات والكيانات مهما طالقت فهي ليست إلا أياماً قصيرة في عمر التاريخ الطويل.

١ - هذا رد على من يزعم بأن العقيدة في الإمام المهدي تورث الخمول والسلبية، وهو أبلغ رد مستفاد من الحديث الشريف نفسه.
٢ - إشارة إلى دولة الإمام (ع) التي أشار إليها الرسول الأكرم (ص)، راجع: التاج الجامع للأصول ٥: ٣٤٣.
٣ - إشارة إلى الوعد الإلهي في قوله تعالى: (ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين). القصص: ٥، وأيضاً إشارة إلى قوله تعالى: (ليظهره على الذين كرهه المشركون). التوبة: ٣٣، راجع في تفسير الآيتين الإشارة إلى المهدي (ع) ينابيع المودة / القندوزي الحنفي: ص ٤٥٠.
٤ - إشارة إلى بشارة الرسول الأعظم نبينا محمد (ص) في الحديث الشريف: «إن في أمتي المهدي، يخرج يعيش خمساً أو سبعا أو تسعاً»، (الشك من الراوي) قال: قلنا: وما ذلك؟ «قال: سنين، قال: فيجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني أعطني قال: فيحني له في ثوبه ما استطاع أن يحمل». رواه الترمذي. راجع: التاج الجامع للأصول / الشيخ منصور علي ناصف ٥: ٣٤٣، وفيه أكثر من إشارة إلى كون الإمام المهدي موجود حي يعيش في وسط الأمة، وأن خروجه وعيشه، سبع سنين يعني ظهوره، وقيام دولته المباركة التي فيها الخلاص والعدل.

٥ - ورد عنه (ع) أنه سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم، راجع: الاحتجاج / الطبرسي ٢: ٥٤٥.
٦ - إشارة إلى أن (المهدي) ليس مجرد حلم أو فكرة تداعب أفكار المظلومين وتناغي شعورهم، بل هو حقيقة حية مجسدة متشخصة في ذات إنسان بعينه، ومن هنا تكون الفكرة ملامسة لوجدانهم، يعيشون بها، ويعيشون لها، ويسهمون في التحضير والتهيئة للالتحام في المعركة الفاصلة التي سيقودها القائد المنتظر، ولو كانت مجرد حلم أو فكرة، فليس من المتوقع أن تكون مثل تلك الصلة الوجدانية والشعورية. ومن هنا تتأتى أهمية الانتظار، وتبين فلسفته وغاياته، وهو في جملته يتسق مع حالة الترقب والإرهاص التي تسبق ظهور المنقذين من الأنبياء والمصلحين.

٧ - اختلفت الآراء وتباينت المواقف من مسألة المهدي المنتظر، تبعاً لاختلاف المواقف من مسألة الغيب الديني والنصوص الدينية المشهورة والمتواترة، على أن هناك إطباقاً بين علماء المسلمين والمحققين من أهل الحديث من السنة والشيعنة على صحة العقيدة بالمهدي، وعدم جواز التشكيك بها حتى جاء في المأثور: «من أنكر المهدي فقد كفر...» وقد استوفى هذه المسألة بحثاً الشيخ عبدالمحسن عباد في محاضراته التي نشرتها مجلة الجامعة الإسلامية / العدد الثالث / ١٩٦٩ م. وراجع: غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف ٥: ٣٤٣.

٨ - هذا تساؤل فريق من الناس، والواقع أنه يمكن تسجيل الملاحظة السريعة الآتية، وإن كان سيأتي جوابه تفصيلاً:
أ - إنه ليس مستحيلاً بالمعنى المنطقي بل هو في دائرة الإمكان.
ب - إنه ليس مستحيلاً عادةً؛ لوقوع نظائر ذلك فعلاً كما نص القرآن الكريم في مسألة نوح (ع) في قوله تعالى: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً). العنكبوت: ١٤.

٩ - إن تطيل القوانين الطبيعية قد حدث مراراً بالنسبة إلى معجز الأنبياء (ع)، وهذا أمرٌ ضروري من الدين لا مجال لنكرانه فإذا أخبر بذلك من وجب تصديقه جاز بلا خلاف.

١٠ - هذا إشارة إلى عقيدة طوائف من إخواننا أهل السنة. راجع: التاج الجامع للأصول ٥: ٣٦٠ الهامش.
١١ - هذا التساؤل أثير من قبل ويثار اليوم، بأساليب مختلفة، وكلها تستند إلى موهومات وافتراسات لا تقوم على أساس من العلم، بل هي مجرد تشكيكات، ومحاولات بانسة للفرار من أصل القضية ولوازها الضرورية، فهي لا تعدو أن تكون أشبه بتشكيكات

الماديين عندما جوبهوا بأدلة العقل والمنطق والعلم فيما يتعلق بالله تعالى، فلجأوا إلى تساؤلات ساذجة تحكي عدم إيمانهم بما قامت عليه الأدلة الوفيرة، نظير قولهم: لو كان موجوداً فلماذا لا نراه؟ ولماذا لا يفعل كذا وكيت؟ وهكذا شأن هؤلاء، فعندما جوبهوا بالأدلة المنطقية والروايات المتواترة في مسألة المهدي المنتظر مما أطبق عليه الخاص العام وبما لا يسع المرء إنكاره، لجأوا إلى التشكيك في أنه لم يعرف للحسن العسكري ولد، كما اخترعوا أمراً نسبوه زوراً إلى الشيعة من أنهم يقفون على السرداب يوماً ينادون على إمامهم بالخروج، إلا أنهم اختلفوا في السرداب فقال قائل منهم: هو في سامراء، وذهب آخرون إلى أنه في النجف وثالث في مكان آخر، وهكذا شأن المنكرين للضرورات تراهم يخبطون خبط عشواء. راجع: معالجتنا في المقدمة.

١٢ - لقد أثبت الشيخ المفيد في الإرشاد: ص ٣٤٦، والشيخ الشعراني في اليواقيت والجواهر ج ٢ / المبحث ٦٥، ولادة محمد بن الحسن العسكري في عام ٢٥٥ هـ، وهما من أجلّة المحققين لدى الفريقين، وهذا ما يدحض التشكيكات التي يثيرها بعض أدعياء العلم، فضلاً على ما يقتضيه الحديث المتواتر: «الأنمة اثنا عشر كلهم من فريش»، فهو لا يستقيم إلا بما تقرّر لدى الإمامية، وبما التزموا به من إمامة اثني عشر إماماً كلهم من العترة الطاهرة، أولهم الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وآخرهم المهدي. وهؤلاء هم المنصوص عليهم، ويدعم ذلك ويشهد له حديث الثقلين المتواتر، وحديث من مات لا يعرف إمام زمانه، فهما لا يستقيمان إلا على عقيدة الإمامية الاثني عشرية. راجع مناقشة وافية في: الأصول العامة للفقهاء المقارن / العلامة محمد تقى الحكيم / بحث حجبة السنة: ص ١٤٥ وما بعدها.

١٣ - إن الذي تعهد وتكفل بإعداد النبي عيسى (ع)، ووهب النبي يحيى الحكم والحكمة وهو صبي، كما صرح القرآن، يمكن أن يتعهد ويتكفل بمن أعده لتطهير الأرض من الظلم والجور في آخر الزمان، كما هو نص الخبر المتواتر في المهدي الذي هو من عترة فاطمة وثرية الحسين (ع). راجع: التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤١ - ٣٤٣.

١٤ - إن هذه المسألة مرهونة باشتراطاتها الخاصة، وكما تأخر النبي (ص) إلى زمن ظهوره المبارك لحكم وأمر اقتضتها حكمة المرسل (الله) تعالى على رغم الاحتياج إليه، فكذا الأمر هنا. |

١٥ - سيناقش الشهيد الصدر هذه المسألة تفصيلاً.

١٦ - الواقع - وكما سيأتي - أن علماء الأمة الإسلامية أجمعوا على صحة أحاديث المهدي (ع)، ولم يشذ إلا من هو ليس من أهل المعرفة بالحديث. راجع: التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٦١.

١٧ - لقد رأينا صنع (الأبطال) تاريخ أممهم، على أن الشهيد الصدر (ره) هنا يقدم فهماً أصيلاً ومهماً جداً لحركة التاريخ ودور الفرد البطل، وأهمية الظروف الموضوعية في التأثير. وقد أشار توماس كارليل في كتابه (الأبطال) إلى دور البطل. راجع كتابه المذكور، ترجمة الدكتور السباعي - مصر - سلسلة الألف كتاب.

١٨ - في هذا إشارة إلى أسلحة الدمار (الشامل) فضلاً عن التطور التكنولوجي الذي شمل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وتأثيراتها الهائلة. إلا أننا شهدنا كيف توجد بالمقابل الأسلحة المضادة التي كثيراً ما تعطل تلك التأثيرات، وكذلك رأينا تأثير المعنويات في إبطال مفعول أسلحة الخصم أو التقليل من أثارها إلى حد كبير جداً، كما حدث في الثورات والانتفاضات الشعبية.

١٩ - ولم تكن مثل هذه الأمور بمتصورة سابقاً قبل وقوعها، ولو حدث بها أحد من الناس قبل تحققها فعلاً لعد الحديث مجرد تخيلات وأوهام.

٢٠ - الكلام في وقته دقيق علمياً، فهو يقول: إنه ممكن علمياً، ولكنه لم يكن قد تحقق فعلاً، والواقع أن كثيراً من الإنجازات في عالم الفضاء، وتسيير المركبات الفضائية إلى كواكب وتوابع الأرض وغيرها قد أصبح حقائق في أواخر القرن العشرين.

٢١ - نعم، لا يوجد مبرر علمي واحد يرفض هذه النظرية، بل إن علماء الطب منشغلون فعلاً بمحاولات حثيثة لإطالة عمر الإنسان، وإن هناك عشرات التجارب التي تتم في هذا المجال، وذلك وحده ينهض دليلاً قوياً على الإمكان النظري أو العلمي.

٢٢ - يؤكد الأطباء والدراسات الطبية على هذه الملاحظة، وأن لديهم مشاهدات كثيرة في هذا المجال، ولعل هذا هو الذي دفعهم إلى إجراء محاولات وتجارب لإطالة العمر الطبيعي للإنسان، وكالمعتاد كان مسرح التجربة في البداية هي الحيوانات لميسورية ذلك، وعدم وجود محاذير أخرى تمنع إجراء مثل تلك التجارب على الإنسان.

٢٣ - هذه التساؤلات التي يثيرها السيد الشهيد (ص) تهدف إلى ترسيخ حقيقة مهمة، هي أن الرسول الأعظم (ص) عندما بشر (بالمهدي)، وهو حالة غير اعتيادية في سياق البشرية، تنبىء في جملتها عن تسجيل سبق في الإمكانية العملية، بعد تأكيد الإمكانية العملية، أي لبقاء الإنسان مدة أطول بكثير من المعتاد، فإن مثل هذا السبق في التنبية على حقائق في هذا الوجود كان قد سجّله القرآن الكريم والحديث الشريف في موارد كثيرة جداً في مسائل الطبيعة والكون والحياة، راجع: القرآن والعلم الحديث / الدكتور عبدالرزاق نوفل.

٢٤ - إشارة إلى أن هذا من قبيل الإعجاز أيضاً، وهو إفاضة ربانية خاصة، وهذا أمر لا يسع المسلم إنكاره، بعد أن أخبرت بأمثاله الكتب السماوية، وبالأخص القرآن، كالذي ورد في شأن عمر النبي نوح (ع)، وكذا ما أخبر به القرآن من المعجيات الأخرى، على أن كثيراً من أهل السنة ومن المتصوفة وأهل العرفان يؤمنون بوقوع الكرامات وما يشبه المعجزات للأولياء والصلحاء والمقربين من حضرة المولى تعالى. راجع: التصوف والكرامات / الشيخ محمد جواد مغنّية. وراجع: التاج الجامع للأصول ٥ : ٢٢٨ / كتاب الزهد والرقائق، الذين تكلموا في المهدي.

٢٥ - إشارة إلى الآية المباركة: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...) الإسراء : ١.

٢٦ - إشارة إلى تصميم المركبات الفضائية، وركوب الفضاء والتوغّل إلى مسافات بعيدة عن أرضنا، وقطعها في ساعات أو أيام معدودة، وقد أضحت هذه حقائق في حياتنا المعاصرة في أواخر القرن العشرين.

٢٧ - إشارة إلى ما أعدّ للإمام المهدي المنتظر من دور ومهمة تغييرية على مستوى الوجود الإنساني برمته كما يشير الحديث الصحيح: «يملا الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً». |

وهذا الدور وهذه المهمة عليهما الإجماع بين علماء الإسلام، والاختلاف حصل في أمور فرعية. |

ومن هنا كان التساؤل الذي أثاره السيد الشهيد (رض) له مبرر منطقي قوي. |

٢٨ - في الآية المباركة: (فليتب فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً). العنكبوت: ١٤.

٢٩ - السؤال موجّه إلى المسلمين المؤمنين بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف، وقد روى علماء السنة لغير نوح ما هو أكثر من ذلك. راجع تهذيب الأسماء واللغات / النووي ١ : ١٧٦، ولا يصح أن يشكّل أحد بأنّ ذلك أخبر به القرآن فالنصّ قطعي الثبوت، وهو يتعلق بالنبي المرسل نوح (ع)، أما هنا فليس لدينا نصّ قطعي، ولا الأمر متعلق بنبي.

والجواب: أن المهمة أولاً واحدة، وهي تغيير الظلم والفساد، وأنّ الوظيفة كما أوكلت إلى النبي، فقد أوكلت هنا إلى من اختاره الله تعالى أيضاً، كما هو لسان الروايات الصحيحة. قال الرسول الأعظم (ص): «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم الطول الله ذلك اليوم حتى

- يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً...» التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤٣.
- وأما من جهة قطعية النص، فأحاديث المهدي بلغت حد التواتر، وهو موجب للقطع والعلم، فلا فرق في المقامين، راجع: التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤١ و ٣٦٠ فقد نقل التواتر عن الشوكاني، وانتهى المحققون من علماء الفريقيين إلى القول بأن من كفر بالمهدي فقد كفر بالرسول محمد (ص)، وليس ذلك إلا بلحاظ أنه ثبت بالتواتر، وأنه من ضرورات الدين، والمنكر لذلك كافر إجماعاً. وراجع: الإشاعة لأشراط الساعة / البرزنجي في بحثه حول المهدي. وقد نقلنا حكاية التواتر في المقدمة أيضاً.
- ٣٠ - أي أن الأمر يصبح من قبيل المعجز، وهو ما نطق به القرآن، وجاء في صحيح السنة المطهرة، والإعجاز حقيقة رافقت دعوة الأنبياء، وإدعاء سفارتهم عن الحضرة الإلهية، وهو ما لا يسع المسلم إنكاره أو الشك فيه، بل إن غير المسلم يشارك المسلم في الاعتقاد بالمعجزات.
- ٣١ - إشارة إلى قوله تعالى: (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) الشعراء : ٦٣.
- ٣٢ - إشارة إلى قوله تعالى: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم...) النساء : ١٥٧.
- ٣٣ - راجع: سيرة ابن هشام ٢ : ١٢٧، فقد نقل هذه الحادثة وهي مجمع عليها.
- ٣٤ - قد يقال: إن القانون بصفته قانوناً لا يطرده، ولا يتصور التعطيل والانحرام، وقد لا حظ بعضهم أن الانحرام إنما هو بقانون آخر، كما هو الأمر بالنسبة إلى قانون الجاذبية، الذي يستلزم جذب الأشياء إلى المركز، ومع ذلك فإن الماء يصعد بعملية الامتصاص في النباتات من الجذر إلى الأعلى بواسطة الشعيرات، وهذا بحسب قانون آخر هو (الخاصية الشعرية). راجع: القرآن محاولة لفهم عصري / الدكتور مصطفى محمود.
- ٣٥ - وقد بسط الشهيد الصدر القول في هذه المسألة في كتابه فلسفتنا فراجع، ص ٢٩٥ و ٢٩٩.
- ٣٦ - راجع: فلسفتنا ص ٢٨٢ وما بعدها.
- ٣٧ - راجع بسط وشرح النظرية في "الأسس المنطقية للاستقراء" حيث توصل الإمام الشهيد الصدر (ره) إلى اكتشاف مهم وخطير على صعيد نظرية المعرفة بشكل عام.
- ٣٨ - إشارة إلى معتقد الإمامية الاثني عشرية المستند إلى أدلة المعقول والمنقول، وبالأخص إلى حديث الثقلين المتواتر «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي». راجع: صحيح مسلم ٤ : ١٨٧٤ وراجع الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ٨٩، قال: ثم اعلم أن لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً. وكذلك إلى قوله (ص): «لن يفترقا حتى يردا علي الحوض...»، وإلى قوله (ص): «الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش». ومفاد ذلك كله تقرير هذا المعنى.
- ٣٩ - تحدث النبي الأكرم محمد (ص) كثيراً عن خصائصهم وأدوارهم، ووظائفهم ومهماتهم، وأنهم حملة الشريعة، وسفن النجاة، وأمان الأمة، وعصمتها من الضلال، كما إليه الإشارة في حديث الثقلين، وحديث لن يفترقا، وكلاهما يؤكدان عصمتهم، إذ لا يعقل أنهم عصمة الأمة من الضلال، وأنهم لن يفترقا عن القرآن المعصوم، وهم غير معصومين!!
- راجع في هذا المطلب: الأصول العامة للفقهاء المقارن / العلامة محمد تقي الحكيم / مبحث حجية السنة : ص ١٦٩ وما بعدها.
- ٤٠ - أن يكون القائد التاريخي مهيباً نفسياً ومعدداً إعداداً مناسباً لأداء المهمة، أمر مفروغ منه، ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يتحدث عن هذه المسألة في تاريخ الأنبياء بصورة واضحة جداً، وبخاصة فيما يتعلق بالنبي نوح (ع)، وهو أمر يلفت الانتباه والنظر، وربما يكون للتشابه والاتفاق في الدور والمهمة التي أوكلت لهما، كما نبه الشهيد الصدر (ره) إليه.
- راجع: مع الأنبياء / عفيف عبدالفتاح طيارة.
- ٤١ - ويمكن أن تقرب هذا المعنى بما عشناه وشاهدناه من صعود الاتحاد السوفيتي وترقيته حتى صار القطب الثاني في العالم، وتقاسم هو وأمريكا النفوذ الحضاري والهيمنة السياسية، وربكاً معاً أجواء الفضاء، ثم شهدنا انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك أوصاله يمثل تلك السرعة القياسية في الانهيار، فكم كان لذلك من أثر؟ وكم كان فيه من عبرة؟ وكم فيه من دلالة عميقة؟
- ٤٢ - جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) كاتب وفيلسوف فرنسي اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذاً في الأدب الفرنسي الحديث والفلسفة الحديثة، وقد مهدت كتاباته ومقالاته للثورة الفرنسية، وأشهر مؤلفاته العقد الاجتماعي، راجع: موسوعة المورد / منير البعلبكي ٨ : ١٦٩.

هل قرأت سورة الكهف؟

وهل قرأت عن أولئك الفتية الذين آمنوا برَبِّهم وزادهم الله هدىً؟ (٤٣) وواجهوا كياناً وثنيّاً حاكماً، لا يرحم ولا يتردد في خنق أي بذرة من بذور التوحيد والارتفاع عن وحدة الشرك، فضاقت نفوسهم ودبّ إليها اليأس وسدّت منافذ الأمل أمام أعينهم، ولجأوا إلى الكهف يطلبون من الله حلاً لمشكلتهم بعد أن أعييتهم الحلول، وكبر في نفوسهم أن يظل الباطل يحكم ويظلم ويفهر الحقّ ويصفي كلّ من يخفق قلبه للحقّ.

هل تعلم ماذا صنع الله تعالى بهم؟

إنه أنامهم ثلاثمئة سنة وتسع سنين (٤٤) في ذلك الكهف، ثمّ بعثهم من نومهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة، بعد أن كان ذلك الكيان الذي بهرهم بقوّته وظلمه قد تداعى وسقط، وأصبح تاريخاً لا يربح أحداً ولا يحرك ساكناً، كلّ ذلك لكي يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلك الباطل الذي كبر عليهم امتداده وقوّته واستمراره، ويروا انتهاء أمره بأعينهم ويتصاغر الباطل في نفوسهم.

ولئن تحقّقت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة بكلّ ما تحمل من زخم وشموخ نفسيّين من خلال ذلك الحدث الفريد الذي مدّد حياتهم ثلاثمئة سنة، فإنّ الشيء نفسه يتحقّق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذي يتيح له أن يشهد العملاق وهو قزم، والشجرة الباسقة وهي بذرة، والإعصار وهو مجرد نسمة. (٤٥)

أضف إلى ذلك، أن التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوّراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود؛ لأنها تضع الشخص المدّخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكلّ ما فيها من نقاط الضعف والقوة، ومن ألوان الخطأ والصواب، وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقويم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها، وكلّ ملابساتها التاريخية.

ثمّ إنّ عملية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم على أساس رسالة معينة هي رسالة الإسلام، ومن الطبيعي أن تتطلب العملية في هذه الحالة قائداً قريباً من مصادر الإسلام الأولى، قد بنيت شخصيته بناءً كاملاً بصورة مستقلة ومنفصلة عن مؤثرات الحضارة التي يقدر لليوم الموعود أن يحاربها.

وخلافاً لذلك، الشخص الذي يولد وينشأ في كنف هذه الحضارة وتتفتح أفكاره ومشاعره في إطارها، فإنّه لا يتخلّص غالباً من رواسب تلك الحضارة ومركزاتها، وإن قاد حملة تغييرية ضدها.

فلكي يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التي أعدّ لاستبدالها، لا بدّ أن تكون شخصيته قد بنيت بناءً كاملاً في مرحلة حضارية سابقة هي أقرب ما تكون في الروح العامة ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجّه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته. (٤٦)

المبحث الرابع

كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر؟

ونأتي الآن على السؤال الثالث القائل: كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر مع أنه لم يعاصر أباه الإمام العسكري إلاّ خمس سنوات تقريباً؟ وهي فترة الطفولة التي لا تكفي لإنضاج شخصية القائد، فما هي الظروف التي تكامل من خلالها؟

والجواب: إنّ المهديّ (ع) خلف أباه في إمامة المسلمين، وهذا يعني أنه كان إماماً بكلّ ما في الإمامة من محتوى فكري وروحي في وقت مبكر جداً من حياته الشريفة.

والإمامة المبكرة ظاهرة سبقة إليها عددٌ من آبائه (ع)، فالإمام محمد بن علي الجواد (ع) تولى الإمامة وهو في الثامنة من عمره (٤٧)، والإمام علي بن محمد الهادي تولى الإمامة وهو في التاسعة من عمره (٤٨)، والإمام أبو محمد الحسن العسكري (٤٩) ووالد القائد المنتظر تولى الإمامة وهو في الثانية والعشرين من عمره، ويلاحظ أن ظاهرة الإمامة المبكرة بلغت ذروتها في الإمام المهدي والإمام الجواد، ونحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهدي (ع) تشكل مدلولاً حسيّاً عملياً عاشه المسلمون، ووعوه في تجربتهم مع الإمام بشكلٍ وآخر، ولا يمكن أن نطالب بإثبات لظاهرة من الظواهر أوضح وأقوى من تجربة أمة (٥٠). ونوضح ذلك ضمن النقاط التالية:

أ - لم تكن إمامة الإمام من أهل البيت مركزاً من مراكز السلطان والنفوذ التي تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن، ويدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطميين، وخلافة الخلفاء العباسيين، وإنما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشعبية الواسعة عن طريق التغلغل الروحي، والإقناع الفكري لتلك القواعد بجدارة هذه الإمامة لزعامه الإسلام، وقيادته على أسس روحية وفكرية.

ب - إن هذه القواعد الشعبية بنيت منذ صدر الإسلام، وازدهرت واتسعت على عهد الإمامين الباقر والصادق (ع)، وأصبحت المدرسة التي رعاها هذان الإمامان في داخل هذه القواعد تشكل تياراً فكرياً واسعاً في العالم الإسلامي، يضم المنابر من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والعلماء في مختلف ضروب المعرفة الإسلامية والبشرية المعروفة وقتئذٍ، حتى قال الحسن بن علي الوشا: إنني دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمئة شيخ، (٥١) كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد.

ج - إن الشروط التي كانت هذه المدرسة وما تمثله من قواعد شعبية في المجتمع الإسلامي، تؤمن بها وتتقيد بموجبها في تعيين الإمام والتعرف على كفاءته للإمامة، شروط شديدة؛ لأنها تؤمن بأن الإمام لا يكون إماماً إلا إذا كان أعلم علماء عصره. (٥٢)

د - إن المدرسة وقواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة في سبيل الصمود على عقيدتها في الإمامة؛ لأنها كانت في نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطأ عدانياً، ولو من الناحية الفكرية على الأقل، الأمر الذي أدى إلى قيام السلطات وقتئذٍ وباستمرار تقريباً بحملات من التصفية والتعذيب، فقتل من قُتل، وسُجن من سُجن، ومات في ظلمات المعتقلات المنابر. وهذا يعني أن الاعتقاد بإمامة أئمة أهل البيت كان يكلفهم غالباً، (٥٣) ولم يكن له من الإغراءات سوى ما يحسن به المعتقد أو يفترضه من التقرب إلى الله تعالى والزلفي عنده.

هـ - إن الأئمة الذين دانت هذه القواعد لهم بالإمامة لم يكونوا معزولين عنها، ولا متفوقين في بروج عالية شأن السلاطين مع شعوبهم، ولم يكونوا يحتجبون عنهم إلا أن تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن أو نفي، وهذا ما نعرفه من خلال العدد الكبير من الروايات والمحدثين عن كل واحد من الأئمة الأحد عشر، ومن خلال ما نقل من المكاتبات التي كانت تحصل بين الإمام ومعاصريه، وما كان الإمام يقوم به من أسفار من ناحية، وما كان يبثه من وكلاء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من ناحية أخرى، وما كان قد اعتاده الشيعة من تفقد أئمتهم وزيارتهم في المدينة المنورة عندما يؤمّون الديار المقدسة من كل مكان لأداء فريضة الحج، (٥٤) كل ذلك يفرض تفاعلاً مستمراً بدرجة واضحة بين الإمام وقواعده الممتدة في أرجاء العالم الإسلامي بمختلف طبقاتها من العلماء وغيرهم.

و - إن الخلافة المعاصرة للأئمة (ع) كانت تنظر إليهم وإلى زعامتهم الروحية والإمامية بوصفها مصدر خطر كبير على كياناتها ومقدراتها، وعلى هذا الأساس بذلت كل جهودها في سبيل تفتيت هذه الزعامات، وتحملت في سبيل ذلك كثيراً من السلبات، وظهرت أحياناً بمظاهر القسوة والطغيان حينما اضطرّها تأمين مواقعها إلى ذلك، وكانت حملات الاعتقال والمطاردة مستمرة للأئمة (٥٥) أنفسهم على الرغم مما يخلفه ذلك من شعور بالألم أو الاشمزاز عند المسلمين وللناس المواليين على اختلاف درجاتهم.

إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار، وهي حقائق تاريخية لا تقبل الشك، أمكن أن نخرج بنتيجة، وهي: أن ظاهرة الإمامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية ولم تكن وهمياً من الأوهام؛ لأن الإمام الذي يبرز على المسرح وهو صغير فيعطن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين، ويدين له بالولاء والإمامة كل ذلك التيار الواسع، لا بد أن يكون على قدر واضح وملحوظ، بل وكبير من العلم والمعرفة وسعة الأفق والتمكن من الفقه والتفسير والعقائد؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما أمكن أن تقتنع تلك القواعد الشعبية بإمامته، مع ما تقدم من أن الأئمة كانوا في مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم، وللأضواء المختلفة أن تُسلط على حياتهم وموازين شخصيتهم.

فهل ترى أنّ صبيّاً يدعو إلى إمامة نفسه وينصبّ منها علماً للإسلام وهو على مرأىٍ ومسمع من جماهير قواعده الشعبية، فتؤمن به وتبذل في سبيل ذلك الغالي من أمنها وحياتها بدون أن تكلف نفسها اكتشاف حاله، وبدون أن تهزها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف وتقويم هذا الصبيّ الإمام؟ (٥٦) وهب أنّ الناس لم يتحركوا لاستطلاع المواقف، فهل يمكن أن تمرّ المسألة أياماً وشهوراً، بل أعواماً دون أن تتكشف الحقيقة، على الرغم من التفاعل الطبيعي المستمرّ بين الصبيّ الإمام وسائر الناس؟ وهل من المعقول أن يكون صبيّاً في فكره وعلمه حقاً، ثمّ لا يبدو ذلك من خلال هذا التفاعل الطويل؟

وإذا افترضنا أنّ القواعد الشعبية لإمامة أهل البيت لم يُتَح لها أن تكتشف واقع الأمر، فلماذا سكنت الخلافة القائمة ولم تعمل لكشف الحقيقة إذا كانت في صالحها؟ وما كان أيسر ذلك على السلطة القائمة لو كان الإمام الصبيّ صبيّاً في فكره وثقافته كما هو المعهود في الصبيان، وما كان أنجح من أسلوب أن تقدّم هذا الصبي إلى شيعته وغير شيعته على حقيقته، وتبرهن على عدم كفاءته للإمامة والزعامة الروحية والفكرية. فلنن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص في الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدر كبير من ثقافة عصره لتسلّم الإمامة، فليس هناك صعوبة في الإقناع بعدم كفاءة صبيّ اعتيادي مهما كان ذكياً وفطناً للإمامة بمعناها الذي يعرفه الشيعة الإماميون، (٥٧) وكان هذا أسهل وأيسر من الطرق المعقّدة وأساليب القمع، والمجازفة التي انتهجتها السلطات وقتئذٍ.

إنّ التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة، (٥٨) هو أنها أدركت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية وليست شيئاً مصطنعاً.

والحقيقة أنها أدركت ذلك بالفعل بعد أن حاولت أن تلعب بتلك الورقة فلم تستطع، والتاريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل وفشلها، (٥٩) بينما لم يحدثنا إطلاقاً عن موقف تزعرت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبيّ الإمام إخراجاً يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه.

وهذا معنى ما قلناه من أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية في حياة أهل البيت وليست مجرد افتراض، كما أنّ هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة في تراث السماء الذي امتدّ عبر الرسالات والزعامات الربانيّة

ويكفي مثلاً لظاهرة الإمامة المبكرة في التراث الرباني لأهل البيت (ع) يحيى (ع) إذ قال الله سبحانه وتعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) مريم: ١٢.

ومتى ثبت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية ومتواجدة فعلاً في حياة أهل البيت لم يعد هناك اعتراض فيما يخصّ إمامة المهديّ (ع) وخلافته لأبيه وهو صغير (٦٠).

المبحث الخامس

كيف نؤمن بأنّ المهديّ قد وُجد؟

ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول: هب أنّ فرضيّة القائد المنتظر ممكنة بكلّ ما تستبطنه من عمر طويل، وإمامة مبكرة، وغيبة صامتة، فإنّ الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً.

فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهديّ؟ وهل تكفي بضع روايات تنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم (ص)، للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر، على الرغم ممّا في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المألوف؟ بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدي وجوداً تاريخياً حقاً وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته في نفوس عدد كبير من الناس؟ (٦١)

والجواب: إن فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظم عموماً، وفي روايات أنمة أهل البيت خصوصاً، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك. وقد أحصى أربعمئة حديث عن النبي (ص) من طرق إخواننا أهل السنة، (٦٢) كما أحصى مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والسنة فكان أكثر من ستة آلاف رواية، (٦٣) وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهيّة التي لا يشكّ فيها مسلم عادة.

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر عليه الصلاة والسلام فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به.

ويمكن تلخيص هذه المبررات في دليلين:

أحدهما إسلامي.

والآخر علمي.

فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائد المنتظر.

وبالدليل العلمي نبرهن على أنّ المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية.

أما الدليل الإسلامي:

فيمثّل في منات الروايات الواردة عن رسول الله (ص) (٦٤) والأنمة من أهل البيت (ع)، والتي تدلّ على تعيين المهديّ وكونه من أهل البيت.. (٦٥)

ومن ولد فاطمة.. (٦٦)

ومن ذرية الحسين.. (٦٧)

وأنه التاسع من ولد الحسين.. (٦٨)

وأن الخلفاء اثنا عشر. (٦٩) فإنّ هذه الروايات تحدّد تلك الفكرة العامة وتشخيصها في الإمام الثاني عشر من أنمة أهل البيت، وهي روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار، على الرغم من تحفّظ الأنمة (ع) واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام، وقايةً للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته. (٧٠) وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها، فالحديث النبوي الشريف عن الأنمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفةً أو أميراً - على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة - قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مئتين وسبعين رواية (٧١) مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة، بما في ذلك البخاري (٧٢) ومسلم (٧٣) والترمذي (٧٤) وأبي داود (٧٥) ومسنّد أحمد (٧٦) ومستدرک الحاكم على الصحيحين، (٧٧) ويلاحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري، وفي ذلك مغزى كبير؛ لأنه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجّل عن النبي (ص) قبل أن يتحقّق مضمونه وتكتمل فكرة الأنمة الاثني عشر فعلاً، وهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له؛ لأنّ الأحاديث المزيفة التي تنسب إلى النبي (ص) - وهي انعكاسات أو تيريرات لواقع متأخر زمنياً - لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي تشكّل انعكاساً له، فما دمنا قد ملكتنا الدليل المادي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للأنمة الاثني عشر، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري، أمكننا أن نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى، (٧٨) فقال: «إنّ الخلفاء بعدى اثنا عشر» (٧٩). وجاء الواقع الإمامي الاثني عشري ابتداءً من الإمام عليّ وانتهاءً بالمهديّ؛ ليكون التطبيق الوحيد المعقول (٨٠) لذلك الحديث النبوي الشريف.

وأما الدليل العلمي:

فهو يتكوّن من تجربة عاشتها أمة من الناس فترة امتدّت سبعين سنة تقريباً وهي فترة الغيبة الصغرى. ولتوضيح ذلك نمهد بإعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى. (٨١)

إنّ الغيبة الصغرى تعبّر عن المرحلة الأولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة والسلام، فقد قدر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة أن يستتر عن المسرح العام ويظنّ بعيداً باسمه عن الأحداث، وإن كان قريباً منها بقلبه وعقله، وقد لوحظ أنّ هذه الغيبة إذا جاءت مفاجئة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة في الأمة الإسلامية؛ لأنّ هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام في كلّ عصر، والتفاعل معه والرجوع إليه في حلّ المشاكل المتنوّعة، فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية والفكرية، سببت هذه الغيبة (٨٢) المفاجئة الإحساس بفراغ دفعي هائل قد يعصف بالكيان كلّه ويشتتّ شمله، فكان لا بدّ من تمهيد لهذه الغيبة؛ لكي تالفها هذه القواعد بالتدرّج، وتكيف نفسها شيئاً فشيئاً على أساسها، وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التي اختفى فيها الإمام المهديّ عن المسرح العام، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طرق وكلائه ونوابه، والثقات من أصحابه الذين يشكّلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطه الإمامي. (٨٣) وقد شغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة ممّن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها. وهم كما يلي:

١ - عثمان بن سعيد العمريّ.

٢ - محمد بن عثمان بن سعيد العمريّ.

٣ - أبو القاسم الحسين بن روح.

٤ - أبو الحسن عليّ بن محمد السمرّيّ.

وقد مارس هؤلاء الأربعة (٨٤) مهامّ النيابة بالترتيب المذكور، وكلّما مات أحدهم خلفه الآخر الذي يليه بتعيين من الإمام المهديّ (ع).

وكان النائب يتصل بالشيعية ويحمل أسنلتهم إلى الإمام، ويعرض مشاكلهم عليه، ويحمل إليهم أجوبته شفوية أحياناً وتحريرية (٨٥) في كثير من الأحيان، وقد وجدت الجماهير التي فقدت رؤية إمامها العزاء والسلوة في هذه المراسلات والاتصالات غير المباشرة. ولا حظت أنّ كلّ التوقعيات والرسائل كانت ترد من الإمام المهديّ (ع) بخطّ واحد وسليقة واحدة (٨٦) طيلة نيابة النواب الأربعة التي استمرت حوالي سبعين عاماً، وكان السمرّيّ هو آخر النواب، فقد أعلن عن انتهاء مرحلة الغيبة الصغرى التي تتميز بنواب معينين، وابتداء الغيبة الكبرى التي لا يوجد فيها أشخاص معينون بالذات للوساطة بين الإمام القائد والشيعية، وقد عبّر التحوّل من الغيبة الصغرى إلى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لأهدافها وانتهاء مهمتها؛ لأنها حصّنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الإمام، واستطاعت أن تكيف وضع الشيعة على أساس الغيبة، وتعدّهم بالتدرّج لتقبّل فكرة النيابة العامة عن الإمام، وبهذا تحولت النيابة من أفراد منصّوسين (٨٧) إلى خطّ عام (٨٨)، وهو خطّ المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعاً لتحوّل الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى.

والآن بإمكانك أن تقدّر الموقف في ضوء ما تقدم، لكي تدرك بوضوح أنّ المهديّ حقيقة عاشتها أمة من الناس، وعبّر عنها السفراء والنواب طيلة سبعين عاماً من خلال تعاملهم من الآخرين، ولم يلاحظ عليهم أحدٌ كلّ هذه المدة تلاعباً في الكلام، أو تحايلاً في التصرف، أو تهافتاً في النقل. فهل تتصور - بربك - أنّ بإمكان أذنوبة أن تعيش سبعين عاماً، ويمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلهم يتفقون عليها، ويظنونّ يتعاملون على أساسها وكأنّها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم دون أن يبدر منهم أي شيء يثير الشكّ، ودون أن يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تتيح لهم نحواً من التواطؤ، ويكسبون من خلال ما يتّصف به سلوكهم من واقعية ثقة الجميع، وإيمانهم بواقعية القضية التي يدعون أنهم يحسنونها ويعيشون معها؟!!

لقد قيل قديماً: إنَّ حبل الكذب قصير، ومنطق الحياة يثبت أيضاً أنَّ من المستحيل عملياً بحساب الاحتمالات أن تعيش أذوبة بهذا الشكل، وكلّ هذه المدّة، وضمن كلّ تلك العلاقات والأخذ والعطاء، ثمّ تكسب ثقة جميع من حولها.

وهكذا نعرف أنّ ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعي، والتسليم بالإمام القائد بولادته (٨٩) وحياته وغيبته، وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد. (٩٠)

المبحث السادس

لماذا لم يظهر القائد إذن؟

لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدّة؟ وإذا كان قد أعدّ نفسه للعمل الاجتماعي، فما الذي منعه عن الظهور على المسرح في فترة الغيبة الصغرى أو في أعقابها بدلاً عن تحويلها إلى غيبة كبرى، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعي والتغييري وقتئذٍ أبسط وأيسر، وكانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه ويبدأ عمله بداية قويّة، ولم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة والقوة التي بلغت الإنسانية بعد ذلك من خلال التطور العلمي والصناعي؟

والجواب: أنّ كلّ عملية تغيير اجتماعي يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتّى لها أن تحقّق هدفها إلاّ عندما تتوفر تلك الشروط والظروف.

وتتميز عمليات التغيير الاجتماعي التي تفجّرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط في جانبها الرسالي بالظروف الموضوعية؛ (٩١) لأنّ الرسالة التي تعتمدها عملية التغيير هنا ربّانية، ومن صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية، ولكنها في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف. ومن أجل ذلك انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يد النبيّ محمد (ص)؛ لأنّ الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخّرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك.

والظروف الموضوعية التي لها أثر في الجانب التنفيذي من عملية التغيير، منها ما يشكّل المناخ المناسب والجو العام للتغيير المستهدف، ومنها ما يشكّل بعض التفاصيل التي تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية.

فبالنسبة إلى عملية التغيير التي قادها - مثلاً - لينين في روسيا بنجاح، كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام الحرب العالمية الأولى وتضعف القيصرية، وهذا ما يساهم في إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير، وكانت ترتبط بعوامل أخرى جزئية ومحدودة من قبيل سلامة لينين مثلاً في سفره الذي تسلّل فيه إلى داخل روسيا وقاد الثورة، إذ لو كان قد اتفق له أي حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلك قدرتها على الظهور السريع على المسرح.

وقد جرت سنة الله تعالى التي لا تجد لها تحويلاً في عمليات التغيير الربّاني على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التي تحقّق المناخ المناسب والجو العام لإنجاح عملية التغيير، ومن هنا لم يأت الإسلام إلاّ بعد فترة من الرسل وفراغ مرير استمرّ قروناً من الزمن.

فعلى الرغم من قدرة الله - سبحانه وتعالى - على تذليل كل العقبات والصعاب في وجه الرسالة الربّانية وخلق المناخ المناسب لها خلقاً بالإعجاز، لم يشأ أن يستعمل هذا الأسلوب؛ لأنّ الامتحان والابتلاء والمعاناة التي من خلالها يتكامل الإنسان يفرض على العمل التغييري الربّاني أن يكون طبيعياً وموضوعياً من هذه الناحية، وهذا لا يمنع من تدخل الله - سبحانه وتعالى - أحياناً فيما يخصّ بعض التفاصيل التي لا تكوّن المناخ المناسب، وإنما

قد يتطلبها أحياناً التحرك ضمن ذلك المناخ المناسب، ومن ذلك الإمدادات والعنايات الغيبية التي يمنحها الله تعالى لأوليائه في لحظات حرجة فيحمي بها الرسالة، وإذا بنار نمرود تصبح برداً وسلاماً على إبراهيم، (٩٢) وإذا بيد اليهودي الغادر التي ارتفعت بالسيف على رأس النبي (ص) تُثَلَّ وتُفقد قدرتها على الحركة، (٩٣) وإذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار والمشركين الذين أهدقوا بالمدينة في يوم الخندق وتبعث في نفوسهم الرعب، (٩٤) إلا أن هذا كله لا يعدو التفاصيل وتقديم العون في لحظات حاسمة بعد أن كان الجو المناسب والمناخ الملانم لعملية التغيير على العموم قد تكوّن بالصورة الطبيعية ووفقاً للظروف الموضوعية.

وعلى هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدي (ع) لنجد أن عملية التغيير التي أعد لها ترتبط من الناحية التنفيذية كأي عملية تغيير اجتماعي أخرى بظروف موضوعية تساهم في توفير المناخ الملانم لها، ومن هنا كان من الطبيعي أن تُؤقت وفقاً لذلك. ومن المعلوم أن المهدي لم يكن قد أعد نفسه لعمل اجتماعي محدود، ولا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذلك؛ لأن رسالته التي أذخر لها من قبل الله - سبحانه وتعالى - هي تغيير العالم تغييراً شاملاً، وإخراج البشرية كل البشرية، من ظلمات الجور إلى نور العدل، (٩٥) وعملية التغيير الكبرى هذه لا يكفي في ممارستها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح، وإلا لنتمت شروطها في عصر النبوة بالذات، وإنما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً، وجواً عاماً مساعداً، يحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية.

فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاد عاملاً أساسياً في خلق ذلك المناخ المناسب لتقبل رسالة العدل الجديدة، وهذا الشعور بالنفاد يتكوّن ويترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة، التي يخرج منها إنسان الحضارة مثقلاً بسلبيات ما بنى، مدركاً حاجته إلى العون، متلفتاً بفطرته إلى الغيب أو إلى المجهول.

ومن الناحية المادية يمكن أن تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة في عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على سعيد العالم كله، وذلك بما تحقّقه من تقريب المسافات، والقدرة الكبيرة على التفاعل بين شعوب الأرض، وتوفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية لشعوب العالم وتثقيفها على أساس الرسالة الجديدة.

وأما ما أشير إليه في السؤال من تنامي القوى والأداة العسكرية التي يُواجهها القائد في اليوم الموعود كلما أجل ظهوره، فهذا صحيح، ولكن ماذا ينفع نمو الشكل المادي للقوة مع الهزيمة النفسية من الداخل، وانهار البناء الروحي للإنسان الذي يملك كل تلك القوى والأدوات؟ وكم من مرة في التاريخ انهار بناء حضاري شامخ بأول لمسة غازية؛ لأنه كان منهاراً قبل ذلك، وفاقداً الثقة بوجوده والقناعة بكيانه والاطمئنان إلى واقعه. (٩٦)

المبحث السابع وهل للفرد كل هذا الدور؟!

ونأتي إلى سؤال آخر في تسلسل الأسئلة المتقدمة، وهو السؤال الذي يقول: هل للفرد - مهما كان عظيماً - القدرة على إنجاز هذا الدور العظيم؟ وهل الفرد العظيم إلا ذلك الإنسان الذي ترشحه الظروف ليكون واجهاً لها في تحقيق حركتها؟

والفكرة في هذا السؤال ترتبط بوجهة نظر معينة للتاريخ تفسره على أساس أن الإنسان عامل ثانوي (٩٧) فيه، والقوى الموضوعية المحيطة به هي العامل الأساسي، وفي إطار ذلك لن يكون الفرد في أفضل الأحوال إلا التعبير الذكي عن اتجاه هذا العامل الأساسي.

ونحن قد أوضحنا في مواضع آخر من كتبنا المطبوعة (٩٨) أن التاريخ يحتوي على قطبين: أحدهما الإنسان، والآخر القوى المادية المحيطة به. وكما تؤثر القوى المادية وظروف الإنتاج والطبيعة في الإنسان، يؤثر الإنسان أيضاً فيما حوله من قوى وظروف، ولا يوجد مبرر لافتراض أن الحركة تتبدئ من المادة وتنتهي بالإنسان إلا بقدر ما يوجد مبرر لافتراض العكس، فالإنسان والمادة يتفاعلان على مر الزمن، وفي هذا الإطار

بإمكان الفرد أن يكون أكبر من ببغاء في تيار التاريخ، وبخاصة حين نُدخل في الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسماء. (٩٩) فإن هذه الصلة تدخل حينئذ كقوة موجّهة لحركة التاريخ. وهذا ما تحقّق في تاريخ النبوات، وفي تاريخ النبوة الخاتمة بوجه خاص، فإن محدثاً (ص) بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلّم بنفسه زمام الحركة التاريخية، وأنشأ مدأ حضارياً لم يكن بإمكان الظروف الموضوعية التي كانت تحيط به أن تتمخّص عنه بحال من الأحوال، كما أوضحنا ذلك في المقدمة الثانية للفتاوى الواضحة (١٠٠).

وما أمكن أن يقع على يد الرسول الأعظم يمكن أن يقع على يد القائد المنتظر من أهل بيته الذي بشر (١٠١) به ونوّه عن دوره العظيم.

المبحث الثامن ماهي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

ونصل في النهاية إلى السؤال الأخير من الأسئلة التي عرضناها، هو السؤال عن الطريقة التي يمكن أن نتصوّر من خلالها ما سيتمّ على يد ذلك الفرد من انتصار حاسم للعدل، وقضاء على كيانات الظلم المواجهة له.

والجواب المحدّد عن هذا السؤال يرتبط بمعرفة الوقت والمرحلة التي يقدر للإمام المهديّ (ع) أن يظهر فيها على المسرح، وإمكان افتراض ما تتميز به تلك المرحلة من خصائص وملابسات لكي تُرسم في ضوء ذلك الصورة التي قد تتخذها عملية التغيير، والمسار الذي قد تتحرك ضمنه، وما دمنا نجهل المرحلة ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمي بما سيقع في اليوم الموعود، وإن أمكنت الافتراضات والتصوّرات التي تقوم في الغالب على أساس ذهني لا على أسس واقعية عينية.

وهناك افتراض أساسي واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدثت عنه، (١٠٢) والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرى في التاريخ، وهو افتراض ظهور المهديّ (ع) في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة. (١٠٣) وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتدّ، وهذه النكسة تهَيء الجو النفسي لقبولها، وليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الإنسانية، وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله - سبحانه وتعالى - التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاً حاسماً فتشتعل النار التي لا تُبقي ولا تذر، ويبرز النور في تلك اللحظة؛ ليطفئ النار ويقيم على الأرض عدل السماء.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين. وقد وقع الابتداء في كتابة هذه الوريقات في اليوم الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٩٧ هـ، ووقع الفراغ منها عصر اليوم السابع عشر من الشهر نفسه.

والله ولي التوفيق.

محمد باقر الصدر - النجف الأشرف

تمّ الفراغ من تحقيق هذا الكتاب في شهر رجب المرجّب من سنة ١٤١٦ هـ، وذلك في قم المقدسة.

الدكتور عبدالجبار شرارة

٤٣ - إشارة إلى الآية القرآنية المباركة: (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى...) الكهف: ١٣، وراجع تفسيرها في الكشاف / الزمخشري ٢: ٧٠٦، نشر دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٤ - إشارة إلى الآية: (وليثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا...) الكهف: ٢٥.

٤٥ - وكل ذلك له مدخلية في تربيته وإعداده الإعداد الخاص، بما في ذلك امتلاكه النظرة الشمولية العميقة، فضلاً عن شهوده بنفسه ضالة أولئك المتعلمين الذين يملؤون الدنيا ضجيجاً وصخباً، ويسترهبون الناس، وهذا الشهود يؤهله أكثر فأكثر لأداء مهمته الكونية في التغيير، أي ملنه للأرض عدلاً بعدما ملنت ظلماً، هذا بغمض النظر عن مؤهلاته الذاتية، والعناية الربانية الخاصة.

٤٦ - ولا ينبغي أن يُشكل أحدٌ بأن النبي محمد (ص) مع عالمية رسالته ومهمته التغييرية الكبرى، إلا أنه عاش في كنف الحضارة الجاهلية، ولم يتأثر بها، وكذا الأنبياء السابقون، فما هو الوجه في هذا الرأي؟
فجوابه:

أ - إن النبي (ص) قد أخضع فعلاً إلى حالة عزلة تامة عن الحضارة الجاهلية، وأنه كما ورد في السيرة النبوية قد حَبِبَ إليه الخلاء، وكان يذهب إلى غار حراء يتحنّث فيه، وكذا الأنبياء كانوا يتنزهون عما عليه مجتمعاتهم، وكانوا يعتزلون، وإليه الإشارة في قوله تعالى: (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق) مريم: ٤٩.

ب - إن النبي المرسل يوحى إليه، ويسدّد مباشرة من السماء، ويبلغ بالأعمال والخطوات التي يتخذها خطوة، والإمام (ع) لا يوحى إليه - كما هو عقيدة الإمامية - ولا يبلغ بالأمور مباشرة من السماء، نعم يكون مسدداً وتحت العناية الربانية، ولذلك فهو يحتاج إلى إعداد خاص. ففي نفس الوقت الذي يكون فيه قريباً ومتصلاً بالحضارة الإسلامية، مستمداً من آياته (ع) الأصالة والمعرفة والعلم، يكون مطلعاً على التجارب البشرية والحضارات في صعودها وعوامل تكوّنها وقوتها، وكذلك إخفاقاتها وعوامل ضعفها وانهارها، فيستمد الخبرة والقدرة والإحاطة بالأمور جميعاً، هذا مع اعتقادنا بقدرات الإمام العلمية الذاتية التي وهبها الله تعالى له، ويكونه مسدداً من السماء، كما سيتوضّح في المبحث الرابع.

٤٧ - راجع: الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي المكي (ت / ٨٥٥ هـ). وراجع: الإرشاد / الشيخ المفيد: ص ٣١٦ وما بعدها.

٤٨ - راجع: التتمة في تواريخ الأئمة / السيد تاج الدين العاملي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، نشر مؤسسة البعثة - قم. وراجع: الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٢٣ - ١٢٤، إذ ذكر طرفاً من سيرة الإمام وكراماته.

٤٩ - راجع: التتمة في تواريخ الأئمة / السيد تاج الدين العاملي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، نشر مؤسسة البعثة - قم. وراجع: الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٢٣ - ١٢٤، إذ ذكر طرفاً من سيرة الإمام وكراماته.

٥٠ - راجع: الإرشاد / الشيخ المفيد: ص ٣١٩ وما بعدها. والصواعق المحرقة: ص ١٢٣ - ١٢٤.

فقد أوردنا قصة المحاورة التي دارت بين الإمام الجواد (ع) ويحيى بن أكثم زمن المأمون، وكيف استطاع الإمام (ع) أن يثبت أعلميته وقدرته على إفحام الخصم وهو في تلك السن المبكرة.

٥١ - راجع: المجالس السنوية / السيد الأمين العاملي ٥: ٢٠٩، وهذه قضية مشهورة تناقلها الخاص والعام. وراجع: صحاح الأخبار / محمد سراج الدين الرفاعي: ص ٤٤، نقلًا عن الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / أسد حيدر ١: ٥٦. وقال ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٢٠: "جعفر الصادق، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السخيتاني..."

٥٢ - كون الإمام أعلم أهل زمانه أمرٌ متسالم عليه عند الإمامية. راجع: الباب الحادي عشر / العلامة الحلي، هذا وقد عرّضوا لأكثر من اختبار صلوات الله وسلامه عليهم لإثبات هذا المدعى، ونجحوا فيه.

راجع: الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٢٣، فقد نقل تفصيلاً في هذه المسألة عن مسائل يحيى بن أكثم للإمام الجواد (ع).

٥٣ - إن الاعتقاد بإمامة الأئمة كلف أتباعهم غالياً، وهذا ثابت تاريخياً، وليس إلى إنكاره من سبيل، والشاهد يدل على الغائب أيضاً. راجع: مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني.

٥٤ - وقد أوصى الأئمة بذلك أتباعهم كما هو لسان الروايات الكثيرة.

راجع: أصول الكافي ١: ٣٢٢ / كتاب الحجّة - باب ٢ "إنّ الواجب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم، ويعلمونه ولايتهم ومودّتهم له".

٥٥ - راجع في تاريخ الأئمة (ع)، وتعرّضهم للاضطهاد والمطاردة والسجن والقتل أحياناً:

أ - الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي.

ب - مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني.

ج - الإرشاد للشيخ المفيد.

٥٦ - إشارة إلى الإمام المهدي (ع)، ومن قبل إلى الإمام الجواد مثلاً.

٥٧ - أي على أنه يجب أن يكون أفضل الناس، وأعلم الناس كما هو معتقد الإمامية الاثني عشرية.

راجع: حقّ اليقين في معرفة أصول الدين للسيد عبدالله شبر (ت / ١٢٤٢ هـ) ١: ١٤١، المقصد الثالث.

٥٨ - يقصد تقديم الإمام الصبي للاختبار أمام الملأ لإظهار حقيقة الأمر.

٥٩ - قد فعل المأمون ذلك، وانكشف لدى الخاص من العلماء مدى ما يمتلكه الإمام الجواد (ع) من الفقه والعلم. راجع: الصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٢٣.

٦٠ - وقد شاهد خاصة الشيعة الإمام المهديّ واتصلوا به، وأخذوا عنه، كما حصل عن طريق السفراء الأربعة. راجع: تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهديّ / البحراني، والإرشاد / الشيخ المفيد: ص ٣٤٥، وراجع تفصيلاً وأحياناً في دفاع عن الكافي / السيد تامر العميدي ١: ٥٣٥ وما بعدها.

٦١ - هذه التساؤلات يطرحها السيد الشهيد (ص) بصفحتها من الإشكالات التي أثّرت وتثار عادةً حول المهديّ (ع)، وهي أقصى ما يُثار في هذا الصدد، حتى أنّ بعض الكتاب المعاصرين قد أثاروا أخيراً مدفوعين بدوافع غير علمية، مصحوبة تلك الإثارة بضجيج مكثف، ومحاولات بانسة من الوهابية لترويجها وتبنيها، ولا تخفى الدوافع بعد ذلك على أحد. وقد أجاب الإمام الشهيد بجواب علمي لمن يريد الحقيقة. راجع ما كتبناه في المقدمة أيضاً.

٦٢ - يلاحظ كتاب (المهديّ) للسيد "العم" الصدر قدس الله روحه الزكية. (الشهيد الصدر).

راجع: ما أثبتته الشيخ العباد في مجلد الجامعة الإسلامية / العدد ٣ سنة ١٩٦٩.

- وراجع: المهدي الموعود المنتظر / الشيخ نجم الدين العسكري.
- ٦٣ - يلاحظ كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي. (الشهيد الصدر).
- ٦٤ - راجع: معجم أحاديث الإمام المهدي / مؤسسة المعارف الإسلامية / الجزء الأول - أحاديث النبي.
- ٦٥ - أخرج أحمد وابن أبي شيبه وابن ماجه ونعيم بن حنظل في الفتن عن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص): «المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة».
- راجع: الحاوي للفتاوي / السيوطي ٢: ٢١٣ و ٢١٥ وفيه، أيضاً: أخرج أحمد وابن أبي شيبه وأبو داود، عن علي، عن النبي (ص) قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»، وراجع: صحيح سنن المصطفى ٢: ٢٠٧، وسنن ابن ماجه ٢: ١٣٦٧ / ٤٠٨٥.
- وراجع: معجم أحاديث المهدي ١: ١٤٧ وما بعدها، إذ ينقل أحاديث كثيرة عن الصحاح والمسائيد في هذا المعنى. موسوعة الإمام المهدي / ترتيب مهدي فقيه إيماني، الجزء الأول، وفيها نسخة مصورة عن محاضرة الشيخ العباد حول ما جاء من الأحاديث والآثار في المهدي (ع).
- ٦٦ - الحاوي للفتاوي / السيوطي جلال الدين ٢: ٢١٤، قال: وأخرج أبو داود وابن ماجه والطبراني والحاكم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة». راجع صحيح سنن المصطفى لأبي داود ٢: ٢٠٨.
- ٦٧ - حديث المهدي من ذرية الحسين (ع) كما في المصادر الآتية على ما نقل في معجم أحاديث المهدي وهي: الأربعون حديثاً لأبي نعيم الأصفهاني كما في عقد الدرر للمقدسي الشافعي، وأخرجه الطبراني في الأوسط على ما في المنار المنيف لابن القيم، وفي السيرة الحلبية ١: ١٩٣، وفي القول المختصر لابن حجر. راجع منتخب الأثر للشيخ لطف الله الصافي في ما نقله من كتب الشيعة، وراجع توهين الرواية التي تقول بأنه من ولد الإمام الحسن (ع) كتاب السيد العميدي (دفاع عن الكافي ١: ٢٩٦).
- ٦٨ - راجع الرواية التي تنص على أنه التاسع من ولد الحسين (ع) في: ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ص ٤٩٢، وفي مقتل الإمام الحسين للخوارزمي ١: ١٩٦، وفي فراند السمطين للجويني الشافعي ٢: ٣١٠ - ٣١٥ الأحاديث من ٥٦١ - ٥٦٩، وراجع منتخب الأثر للعلامة الشيخ الصافي إذ خرجها من طرق الفريقين (دفاع عن الكافي ١: ٢٩٤).
- ٦٩ - حديث «الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش» أو «لا يزال هذا الدين قائماً ما وليه اثنا عشر، كلهم من قريش». هذا الحديث متواتر، روته الصحاح والمسائيد بطرق متعددة وإن اختلف في متنه قليلاً، نعم، اختلفوا في تأويله واضطربوا. راجع: صحيح البخاري ٩: ١٠١ كتاب الأحكام باب الاستخلاف. وصحيح مسلم ٢: ١١٩ كتاب الإمارة. مسند أحمد ٥: ٩٠، ٩٣، ٩٧.
- ٧٠ - راجع الغيبة الكبرى / السيد محمد الصدر: ص ٢٧٢ وما بعدها.
- ٧١ - راجع التاج الجامع للأصول ٣: ٤٠، قال: رواه الشيخان والترمذي، وراجع في تحقيق الحديث وطرقه وأسانيده كتاب الإمام المهدي (ع) / علي محمد علي دخیل.
- ٧٢ - صحيح البخاري / المجلد الثالث / ٩: ١٠١، كتاب الأحكام - باب الاستخلاف. طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٣ - راجع: التاج الجامع للأصول ٣: ٤٠، قال تعقيباً على الحديث: رواه الشيخان والترمذي، وفي الهامش قال: رواه أبو داود في كتاب المهدي بلفظ: «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة...»، وراجع سنن أبي داود ٢: ٢٠٧.
- ٧٤ - المصدر السابق.
- ٧٥ - المصدر السابق.
- ٧٦ - مسند الإمام أحمد ٥: ٩٣، ١٠٠.
- ٧٧ - المستدرک علی الصحیحین ٣: ٦١٨.
- ٧٨ - إشارة إلى قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) النجم: ٣ - ٤.
- ٧٩ - تقدم تخريج الحديث.
- ٨٠ - اضطرب العلماء في تأويله بعد إطباقهم على صحته، وما أوردوه من مصاديق لا يمكن قبولها، بل أن بعضها غير معقول تماماً كإدخالهم يزيد بن معاوية المجاهر بالفسق، المحكوم بالمروق والكفر أو من هو على شاكلته. راجع ما نقله السيد ثامر العميدي من أقوالهم، وقد ناقش هذه القضية مناقشة وافية وعلمية، وأبطل تأويلاتهم بما لا مزيد عليه في دفاع عن الكافي ١: ٥٤٠ وما بعدها.
- ٨١ - راجع الغيبة الصغرى / السيد محمد الصدر، فقد توسع في بحثها.
- ٨٢ - إشارة إلى الغيبة الكبرى.
- ٨٣ - راجع: تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهدي / السيد هاشم البحراني. ودفاع عن الكافي / السيد ثامر العميدي ١: ٥٦٨ وما بعدها.
- ٨٤ - راجع ترجمة هؤلاء الأربعة في كتاب الغيبة الصغرى للسيد محمد الصدر، الفصل الثالث: ص ٣٩٥ وما بعدها، نشر دارالتعارف للمطبوعات / بيروت ١٩٨٠.
- ٨٥ - وهذه تُعرف بالتوقيعات، وهي الأجوبة التحريرية والشفوية التي نقلت عن الإمام المهدي (ع). راجع: الاحتجاج / الطبرسي ٢: ٥٢٣ وما بعدها.
- ٨٦ - مما استقر في الأوساط الأدبية وعند نقاد الأدب قديماً وحديثاً أن الأسلوب هو الرجل، وهذه المقولة صحيحة. ومن هنا رأينا وسمعنا أن كثيراً من الأدباء وقارني الأدب يميزون بمجرد قراءة النص شعرياً كان أم نثرياً أنه لفلان، وما ذلك إلا لأن الأسلوب هو الرجل، وأن لكل كاتب سمة وطابعاً خاصاً في كتابته يمكن تمييزه من غيره، هذا فضلاً على تميز خطه الشريف من غيره من الخطوط.
- ٨٧ - إشارة إلى النواب الأربعة المذكورين.
- ٨٨ - وهو ما اصطلاح عليه (بالمرجعية الدينية)، ويلاحظ هنا الصفات التي يرى الإمام الشهيد لزوم توفرها في المرجعية.
- ٨٩ - إن اتصال الإمام القائد المهدي بقواعده الشيعية عن طريق نوابه ووكلائه، أو بأساليب أخرى متنوعة واقع تاريخي موضوعي ليس من سبيل إلى إنكاره، كما في السفارة، فضلاً عن الدلائل الأخرى الكثيرة المستندة إلى إخبار من يجب تصديقه، ثم هو مقتضى الأحاديث المتواترة، كحديث: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، وغير ذلك. إن كل ذلك مجموعاً - وهو محل اتفاق أكثر طوائف الملة الإسلامية - يدحض ويشكل قاطع ما يثيره المتشككون حول وجود الإمام واستمرار حياته المباركة الشريفة، راجع: الغيبة الصغرى / السيد محمد الصدر: ص ٥٦٦. وراجع ما أثبتناه في المقدمة: ص ١٥ وما بعدها.
- ٩٠ - ورد التوقيع الشريف عن الإمام القائد المهدي (ع) بعدم إمكان رؤيته بشكل صريح بعد وقوع الغيبة الكبرى، وهذا محل اتفاق علماء الإمامية. وراجع مناقشة المسألة في: الغيبة الصغرى / السيد محمد الصدر: ص ٦٣٩ وما بعدها.
- ٩١ - على الرغم من الأهمية التي يعطيها الشهيد الصدر (ره) هنا للظروف الموضوعية؛ ودور نضوجها أو إنضاجها في نجاح الثورات - وهذا فهم عميق لأثر العالم الاجتماعي والنفسي - إلا أن الشهيد الصدر (ره) يعرض نظرية جديدة في فهم عملية التغيير

الاجتماعي الذي تحدثه السماء من خلال الرسالات السماوية، فهي في جانبها الرسالي ترتبط بقانونها الخاص، ولكن في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية وترتبط بها توقيتاً ونجاحاً، وأعني بالظروف الموضوعية: الحالة السياسية، والحالة الاجتماعية للأمم، والواقع الدولي المعاصر، ومدى قدرة الأمة في إمكاناتها الذاتية واستعدادها النفسي.

٩٢ - إشارة إلى قوله تعالى: (قالوا حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادو به كيداً فجعلناهم الأخسرين) الأنبياء: ٦٨ - ٧٠.

٩٣ - راجع الرواية في تفسير ابن كثير ٢: ٣٣، وراجع: البحار / المجلسي ١٨: ٤٧ و ٥٢ و ٦٠، ٧٥، باب معجزات النبي (ص).

٩٤ - تاريخ الطبري ٢: ٢٤٤ حوادث السنة الخامسة من الهجرة.

٩٥ - كما هو نص الحديث النبوي الشريف: «لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

راجع: التاج الجامع للأصول / منصور علي ناصف ٥: ٣٦٠ الهامش، قال: رواه أبو داود والترمذي.

٩٦ - لقد شاهدنا في بداية التسعينات المصداق لهذه المقولة التي أطلقها الشهيد الصدر (ره) استناداً إلى خبرته العميقة بالمجتمع البشري، فقد انهار الاتحاد السوفيتي وهو أحد القطبين اللذين كانا يهيمنان على العالم انهياراً سريعاً جداً، وبصورة أذهلت الجميع.

٩٧ - إشارة إلى نظرية المادية التاريخية، أي إلى التفسير الماركسي للتاريخ، راجع: اقتصادنا ١: ١٩، وفيه تحليل علمي ومناقشة فلسفية عميقة بقلم الإمام الشهيد الصدر (ره).

٩٨ - إشارة إلى كتاب (فلسفتنا)، وإلى مقدمة كتاب (اقتصادنا).

٩٩ - راجع: كتاب الأبطال (البطل في صورة نبي) / توماس كارليل / ترجمة الدكتور السباعي، سلسلة الألف كتاب - مصر.

١٠٠ - راجع المقدمة الثانية في الفتاوى الواضحة: ص ٦٣، وفيها توضيح وتفصيل لهذه المسألة.

١٠١ - التاج الجامع للأصول ٥: ٣٤٣، عن أبي سعيد (رض) عن النبي (ص): المهدي مني أجلى الجبهة أقتى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

١٠٢ - إشارة إلى علامات الظهور أو الملابس والأحداث والوقائع التي تسبق ظهوره المبارك أو ترافق ظهوره كما صورتها الروايات ووردت بها الآثار الصحيحة، وقد بسّطت تفصيلاً في (عصر الظهور) للسيد محمد الصدر. وراجع: الإرشاد / الشيخ المفيد: ص ٣٥٦ وما بعدها.

وراجع أيضاً: الإشاعة لأشراط الساعة / محمد بن رسول الحسيني البرزنجي.

١٠٣ - وفيه إشارة إلى ما يمكن أن تجر إليه الإنسانية من أزمة حضارية بسبب التنافسات والصراعات بين الحضارات المادية والكيانات السياسية، وفشلها في تحقيق الأمن والاستقرار والسعادة للإنسان، ولقد بدأت بوادر مثل هذا الفراغ تظهر وتتسع شيئاً فشيئاً في عصرنا الراهن في شرق الأرض وغربها، وكلّ متتبّع للأخبار والتقارير الصحفية والتحقيقات الخبرية يعرف ذلك جيداً. وما اليوم الموعود ببعيد.